

لطائف المعاني ووجوه الإعجاز في خواتيم سورة البقرة الشريفة
د. نذير بن نبيل الشاربي *

(* أستاذ مساعد بقسم الدراسات القرآنية - جامعة طيبة - المملكة العربية السعودية

ملخص البحث :

هذا بحث وقفت فيه مع آيتين عظيمتين من كتاب الله الكريم، وهما أواخر سورة البقرة الشريفة. وقد توجهت إلى دراسة بدائع المعاني وأوجه الإعجاز المتناثرة في كل جملة بل في كلمة فيهما. وخرجت منهما بمعانٍ بديعة. وهما آيتان عظيمتان اجتمع فيهما عظمة القدر ، وعظمة الزمان والمكان، وقد اجتمعت فيهما وجوه بديعة من الإعجاز، حرصت الدراسة على الوقوف على كثير منها .

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الهادي الأمين، صلوات ربّي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، وبعد :

هذا بحث أضعه بين يدي المنتسبين والدارسين للقرآن العظيم، أردت فيه أن أغوص في أعماق الدلالات والمعاني والقيم المستفادة من خواتيم سورة البقرة الشريفة. وبعد طول فكر ونظر استقرّ الأمر عندي أن أسمه بعنوان (لطائف المعاني ووجوه الإعجاز في خواتيم سورة البقرة الشريفة).

وهي دراسة أقرب ما تكون إلى نمط التفسير التحليلي، مع الخروج عن النمطية المتبعة في هذا المنهج. فلم أقف عند النحو إلا بقدر الحاجة، ولم أطل في تفصيل معاني اللغة إلا فيما له تعلق بالمعاني المستفادة من الجملة القرآنية. وكان همّي أن أقف عند اللطائف القرآنية المستفادة من الآية القرآنية. جامعاً في تدبري للآيتين الكريمتين بين النظر في طبيعة الكلمة وسبك الجملة وأسلوبها ومدى تأثيرها في النفوس، وما يلحق ذلك من قواعد تشريعية وأخلاقية وقيمية.

وأدعي أنني جمعت في هذه الدراسة أجود ما قيل في تفسير الآيتين الكريمتين، ثم توجهت بفكري إلى أعماق الدلالات القرآنية، للوصول إلى أسمى مراتب الهداية المرجوة من التفكير والتدبر في آي القرآن العظيم. فما كان فيه من صواب وحق فمنة من الله وفضل، وما كان من خطأ أو سهو فممن نفسي، والله يهدي إلى سواء السبيل.

التمهيد

نزل القرآن العظيم وفيه آيات بينات، هدى ونور، وسراج منير. نزل وفيه من الآيات العظيمة ما تندكُّ لها الجبال الراسيات، وتنهمر لجلالة هيبتها السحاب الثقال، وتقف أمام روعتها وإعجازها الهمم العوال.

ونزلت أواخر سورة البقرة فيما نزل في المدينة المنورة شرفها الله، نزلت من أقدس الأمكنة، وفي أشرف الأزمنة، وسبقت البشارةُ بهما نزولهما، فكانتا كنزاً من كنوز العرش، التي ما كانت إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، تشریفاً لها عن سائر الأمم. فجاءت الآيتان الكريمتان على أعظم نظم، وأحسن أسلوب، وأوثق ترتيب، وأبلغ تأثير، وانبعثت منهما معانٍ لا حصر لها.

أولاً: فضلها:

جاء في فضل الآيتين الكريمتين ما يدلُّ على عظمة القدر وسمو المكانة، ما يجعل أولي الألباب أمام آيتين عظيمتين، اجتمع فيهما شرف القدر وشرف الزمان والمكان. فقد ثبت في الحديث الصحيح أنهما مما بُشِّر به النبي صلى الله عليه وسلم. ففي الحديث من طريق ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: بينما جبريل قاعدٌ عند النبي صلى الله عليه وسلم، سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح - قط - إلا اليوم، فسلمَّ وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيُّ قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته. (١) وهذا من عظم القدر وشرف المكانة.

ومما يدلُّ على شرف الزمان: أن النبي صلى الله عليه وسلم أوتيتهما ليلة الإسراء

(١) أخرجه مسلم في الصحيح. انظر المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، حديث رقم ٢٥٤.

والمعراج. فقد جاء من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها يقبض منها، قال: (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال: فراش من ذهب، فأعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً، المقحّمات^(١).

وجاء في شرف المكان من طريق حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جَعَلَتِ الْأَرْضُ كُلَّهَا لَنَا مَسْجِدًا، وَجَعَلَتْ تَرَبَّتْهَا لَنَا طَهُورًا، وَجَعَلَتْ صَفُوفَنَا كَصَفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَأَوْتِيتِ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: آخِرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يَعْطَ أَحَدٌ مِنْهُ قَبْلِي وَلَا يُعْطَى مِنْهُ أَحَدٌ بَعْدِي.^(٢) ومحلّ الشاهد هنا أنهما من كنز تحت العرش.

وثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه.^(٣) وساق الطبري في تفسيره من طريق ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال لما نزلت هذه الآية: (أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه)، قال:

(١) - أخرجه مسلم في الصحيح، مرجع سابق، كتاب الايمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، حديث رقم ٢٧٩. والمقحّمات هي المهلكات.

(٢) - أخرجه النسائي في سننه الكبرى. انظر السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق حسن شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، كتاب فضائل القرآن، باب الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة، حديث رقم ٧٩٦٨. وأخرجه احمد في مسنده. انظر مسند الإمام أحمد. احمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، مسند الأنصار، حديث أبي زر الغفاري رضي الله عنه، حديث رقم ٢١٥٦٤.

(٣) - أخرجه البخاري في الصحيح. انظر الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه أو صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، حديث رقم ٥٠٠٩.

قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انتهى إلى قوله: (غفرانك ربنا)، قال الله عز وجل: قد غفرت لكم. فلما قرأ (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)، قال الله عز وجل: لا أحملكم. فلما قرأ (واغفر لنا)، قال الله تبارك وتعالى: قد غفرت لكم. فلما قرأ: (وارحمنا)، قال الله عز وجل: قد رحمتكم، فلما قرأ (وانصرنا على القوم الكافرين)، قال الله عز وجل: قد نصرتكم عليهم» (١).

ثانيا: سبب النزول:

روى الإمام مسلم في صحيحه من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: « لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بركوا على الركب. فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقتراها القوم، نلت بها أسنتهم. فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ- لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥). فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). قال: نعم (ربنا ولا

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الألمي، (ت ٣١٠هـ)، ، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج ٦، ص ١٤٢. وقد حكم عليه احمد محمد شاكر بقوله هذه الرواية موقوفة في الحقيقة مرفوعة حكما، لأنها ليس مما يعرف بالرأي ولا القياس.

تَحْمِلُ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا) البقرة: ٢٨٦، قال: نَعَمْ (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) البقرة: ٢٨٦. قال: نَعَمْ (وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) البقرة: ٢٨٦. قال: نَعَمْ. (١)

ثالثاً: الآية مخصصة وليست ناسخة:

ذكر بعض المصنِّفين في الناسخ والمنسوخ آخر آية في سورة البقرة على أنها تمام الموضوع الثلاثين من السورة الذي وقع فيه النسخ. فذكر بعضهم أنها مما قيل إن فيه نسخاً ورجح خلاف ذلك (٢)، في حين جعلها بعضهم مما وقع فيه النسخ (٣). وحنة من قال بالنسخ ما رواه البخاري في صحيحه، فقال: «عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَحْسِبُهُ ابْنَ عُمَرَ: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤). قَالَ: نَسَخْتَهَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا. (٤)

ولعل ما رواه البخاري قد أشكل على بعض أهل العلم، فظنوا أن الآية فيها نسخ بالمعنى الاصطلاحي للنسخ، وهو المعنى الذي استقر عليه عند المتأخرين برفع الحكم السابق بحكم لاحق له. إلا أن مصطلح النسخ مرّ بتطور دلالي كما مرّت كثير من المصطلحات، أكد ذلك السخاوي فقال: «وإنما وقع الغلط للمتأخرين من قبل عدم المعرفة بمراد المتقدمين، فإنهم كانوا يطلقون على الأحوال المتنقلة للنسخ، والمتأخرون يريدون بالنسخ نزول النص ثانياً رافعاً لحكم النص الأول» (٥). ووافق في ذلك

(١) - أخرجه مسلم في الصحيح، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، حديث رقم ١٩٩.

(٢) - ذكرها النحاس ولكنه لم يرتض القول بنسخها ورجح أنها عامة. انظر الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ)، تحقيق محمد عبد السلام، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨، ص ٢٧٦.

(٣) - ذكرها المقرئ على أنها من المنسوخ، انظر الناسخ والمنسوخ للمقرئ أبو القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي (المتوفى: ٤١٠هـ)، تحقيق زهير الشاويش ومحمد كنعان، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، ص ٥٨.

(٤) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ يَمَّا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مِنْ رَبِّهِ﴾ البقرة: ٢٨٥، حديث رقم ٤٥٤٦.

(٥) - جمال القراء وكمال الإقراء، أبو الحسن السخاوي علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني

الشاطبي فقال : « والذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعمّ منه في كلام الأصوليين. فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخاً، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخاً، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخاً، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعيّ بدليل شرعيّ متأخّر نسخاً^(١). فالنسخ كان يعني في مصطلح المتقدمين التخصيص والبيان ورفع الحكم والتأخير. وهي صورة أعمّ من تلك التي استقرّ عليها مصطلح النسخ عند المتأخرين.

والنسخ في القرآن - وفق ما استقر عليه المصطلح عند المتأخرين - قليل في العدد، ومن حكم على كثير من آياته بالنسخ فقد وهم، وفاته أن يفرّق بين دلالات مصطلح النسخ قديماً وحديثاً، أو أنه لم يتنبّه إلى قواعد النسخ، فظنّ التدرّج أو النسأ أو الإجمال أو الإطلاق أو الأخبار من قبيل المنسوخ. قال الزركشي: « وما فيه - أي القرآن العظيم - من ناسخ ومنسوخ فمعلوم، وهو قليل... وأما غير ذلك فمن تحقق علماً بالنسخ علم أن غالب ذلك من المنسأ... وليس بنسخ، وإنما هو نسأ وتأخير، أو مجمل أخر بيانه لوقت الحاجة، أو مخصوص من عموم، أو حكم عام لخاص، أو لمداخلة معنى في معنى، وأنواع الخطاب كثيرة فظنوا ذلك نسخاً وليس به^(٢).

ووقف الراغب مع الآية الأخيرة من سورة البقرة، وبين أنه لا مدخل فيها للنسخ، فقال: « من قال هذه الآية - يقصد (وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) -، منسوخة بقوله: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)، وجعل علة النسخ أن حديث النفس وما يهجس فيها غير مقدور على صرفه، فإنما استعمل لفظ النسخ في معنى

المصري الشافعي، علم الدين السخاوي (المتوفى: ٦٤٣هـ)، تحقيق مروان العطية ومحسن خرابة، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ج ١، ص ٤٩٩.

(١) - الموافقات، الشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق مشهور آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج ٣، ص ٣٤٤.

(٢) - البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (المتوفى: ٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، ج ٢، ص ٤٤.

التخصيص . فأما أنه أمر بما لا يقدر عليه ثم نسخ، فمحال . وعلى هذا ما روي أنه قيل لابن عباس : إن ابن عمر يبكي لقوله (**وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ**) . فقال ابن عباس : رَحِمَ اللهُ ابن عمر ، لقد وَجَدَ المسلمون منها ما وجدوا ، حتى نزل (**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**) ، فإنه عَنَى أن هذه الآية مخصصة ومبينة للأولى .^(١) وقد وافقه الشاطبي على هذا عندما عرض للآية الكريمة في باب تبين المجل ، فقال : « ذلك من باب تخصيص العموم ، أو بيان المجل »^(٢) . ومال ابن حجر إلى هذا الرأي فقال : « ويحتمل أن يكون المراد بالنسخ في الحديث التخصيص ، كما هي عادة المتقدمين في إطلاق النسخ عليه كثيراً »^(٣) . وهو ما يطمئن إليه الباحث ويميل إلى القول به . فإن إعمال النصّ أولى من إهماله ، وما يحتمل تخصيصه فالقول بتخصيصه أولى من القول بنسخه .

رابعاً: عجيب التناسق القرآني بين أول السورة وآخرها:

تمثّل هاتان الآيتان الكريمتان خاتمة العقد الذي نَظَمْتَهُ سورة البقرة الشريفة ، ولا يخفى على حاذقِ بجودة التناسق القرآني العجيب تعلقُ ختامِ السورة بأولها ، تعلقاً ترتبط به أجزاء السورة بنظام عجيب ، يظهر من صور تناسبه ما لا ينتهي من عجائب المعاني . يقول البقاعي في إحدى صور المناسبة بين آخر السورة وأولها : « إنه لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه على الوجه الذي تقدّم ، ختمها بذلك بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولها ، على وجه يتصل بما قبله من الأوامر والنواهي ، والاتّصاف بأوصاف الكمال أشدّ اتّصال »^(٤) .

(١) - تفسير الراغب الأصفهاني المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة ، الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى : ٥٠٢ هـ) ، تحقيق محمد بسيوني ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ص ٥٩٦ .

(٢) - الموافقات ، الشاطبي ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ .

(٣) - فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ابن حجر أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ ، ج ٨ ، ص ٢٠٧ .

(٤) - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .

ويرى الباحث وجود صور تناسبٍ أُخِرَ تظهر من ثناياها جودة التناسق القرآني العجيب، منها: أنه تعالى لما امتدح المتقين في أول السورة الكريمة، ختمها بذكر سيد المتقين وإمامهم، ثم عطف عليه باتباعه من المؤمنين الذين امتدحهم المولى في مطلع السورة الشريفة.

ثم إن المولى سبحانه ذكر من صفات المتقين في أول السورة فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة: ٣)، وجاء تفصيل ذلك في أواخر السورة الشريفة بذكر صنوف الإيمان بالغيب، فقال تعالى: ﴿كُلُّ ءَٰمَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَّئِكَتِهِ وَكُنُئِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، وهذا لازم ما ذكره البقاعي. أضف إلى ذلك أنه تعالى قال في أول السورة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن بَعْدِكَ﴾ (البقرة: ٤)، وليس بخافٍ وجه التناسب بين هذا وقوله تعالى في ختام السورة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ومن درر التناسق العجيب أيضاً: أن الله سبحانه ذكر الإيمان بالآخرة في أول السورة فقال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة: ٤)، فأغنى ذلك عن ذكر الإيمان بالآخرة في آخرها عند قوله تعالى: ﴿كُلُّ ءَٰمَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَّئِكَتِهِ وَكُنُئِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، وأصبحت المنظومة الإيمانية مكوّنة ممّا ذكر في أول السورة الشريفة وآخرها.

المطلب الأول: لطائف المعاني ووجوه الإعجاز المستفادة من الآية قبل الأخيرة في

سورة البقرة

قال تعالى: ﴿ءَٰمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَٰمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَّئِكَتِهِ وَكُنُئِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥)

أولاً: قوله تعالى: ﴿ءَٰمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

أضفت جودة السبك على المعاني المستفادة من الآية الكريمة طابعا خاصاً، تنكشف

عجائبه للقارئ كلما أعاد النظر بإمعان مرة بعد أخرى، محاولاً الغوص في أعماق الدلالات القرآنية، جامعاً في ذلك بين التدبر الأفقي والعمودي لهذه الدلالات^(١). حتى إن المتدبر ليقف مسلماً لبراعة النظم القرآني الفريد، شاهداً على عظمة الدلالات التي تتجلى له بين حين وآخر. وإليك بعض ما وقفت عليه بعد طول بحث ونظر.

إذا أمعنت النظر في الآية الكريمة انكشفت أمام ناظريك عجائب من صور الإعجاز القرآني. وأول ما يستوقفني في قوله تعالى: ﴿ءَا مَن الرُّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ۖ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ما يحمله بين طياته من صور الإعجاز القرآني الفريدة، والتي تتجلى ملامحها في تركيبية النظم التي قامت على الفصل بين لفظي (الرُّسُولُ) و (وَالْمُؤْمِنُونَ) بجملة الصلة، مع أنه كان بالإمكان أن يعطف بالمؤمنين على الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة، وما هذا الفصل إلا لإفادة معانٍ عظيمة أدرك بعضها أساطين التفسير وأئمتهم.

وقد فصل البيضاوي التركيبية النحوية للجملة القرآنية حاملاً إياها على وجهين، أولهما أن يكون (كُلُّ) راجعاً إلى (الرُّسُولُ) و (وَالْمُؤْمِنُونَ)، على اعتبار (وَالْمُؤْمِنُونَ) معطوف على (الرُّسُولُ). وثانيهما أن يكون (وَالْمُؤْمِنُونَ) مبتدأً مقطوعاً عما قبله بواو الاستئناف ويكون (كُلُّ) ضمير متعلق به.

فإن قلت: ما فائدة هذا التفصيل؟ أجابك البيضاوي بأن في الآية الكريمة: «شهادة وتنصيماً من الله تعالى على صحة إيمان الرسول والاعتداد به، وأنه جازم في أمره غير شك فيه.... ويكون إفراد الرسول بالحكم إما لتعظيمه، أو لأن إيمانه عن مشاهدة وعيان، وإيمانهم عن نظر واستدلال»^(٢).

(١) - اقصد بالتدبر الأفقي النظر في الآية ونظيراتها في القرآن العظيم، واقصد بالتدبر العمودي الغوص في أعماق الدلالات المستفادة من ذات الآية الكريمة.

(٢) - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ج ١، ص ١٦٦، بتصرف.

والحق أن إيمان النبي عليه الصلاة والسلام رقى فوق كل إيمان لأنه «إيمان التلقي المباشر، تلقي قلبه للوحي العلي، واتصاله المباشر بالحقيقة المباشرة التي تتمثل في كيانه بذاتها من غير كدٍّ ولا محاولة، وبلا أداة ولا واسطة»^(١) فهو إذاً إيمان تعجز المدارك عن إدراك منتهاها، وتعجز قدراتنا عن الارتقاء الى مستواه؛ ولهذا كان إفراذه عليه السلام بوصف الإيمان في مطلع الآية في غاية الإعجاز وهو يجمع إلى الإعجاز البياني إعجازاً نفسياً، يظهر الفرق من خلاله جلياً بين من يتصل بالحقيقة اتصالاً مباشراً، ومن تكون الواسطة أو الأداة وسيلةً التواصل أو الاتصال بينه وبين الحقيقة التي يسعى إلى إدراكها.

وبهذا ينعكس أثر معرفة الحق على النفس بحسب نوع الاتصال، فمن كان اتصاله بالحقيقة مباشراً كان إيمانه مطلقاً لا تخالطه الوسوس ولا تخلط عليه النظرة المجزوءة لحقائق الأمور، أما من كانت علاقته بالحقيقة مرتبطة بالأداة والواسطة، فيظل إيمانه مشوباً ببعض العلائق والوسوس، وما أحوج السياسات الإعلامية المعاصرة إلى وعي هذه الحقيقة وإدراكها.

وقد علمنا من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من آثار هذا التفاوت، من ذلك ما رأيناه يوم صلح الحديبية، فالصحابية رغم إيمانهم المطلق بما جاء به محمد عليه أزكى سلام وصلاة، توجسوا وفتنوا وانقسموا بين موافق ومعارض، وليس هذا العيب فيهم، وليس لأحد أن يغمزهم بسببه، وإنما هي طبيعة النفس التي لم تتصل بالحقيقة اتصالاً مباشراً كما هو اتصال النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الحقيقة، وهذا سرٌّ عجيب من أسرار الإعجاز التأثيري في مطلع الآية الكريمة.

وانظر إلى التقديم والتأخير في قوله سبحانه ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ ، حيث تقدم الجار والمجرور (إِلَيْهِ) لإفادة الاهتمام والتعظيم لقدرة النبي الأكرم صلى

(١) - في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية والثلاثون، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ج ١، ص ٣٤١.

الله عليه وسلم. يقول الألوسي في بيان ذلك: « وفي تقديم الانتهاء على الابتداء مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلى ضميره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما لا يخفى من التعظيم لقدره الشريف، والتنويه برفعة محلّه المنيف»^(١).

ثانياً: قوله تعالى ﴿كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾

ما أبهى ذلك الإعجاز الذي نلحظه في الترتيب الوارد في الآية الكريمة! ذلك أن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾، وترتيب النظم القرآني مقصود، إما مراعاة الإيمان كما هو في حق محمد صلى الله عليه وسلم، وإما أن يكون بحسب الوقائع.

فلو قلنا بأن الترتيب جاء بقصد مراعاة إيمان محمد صلى الله عليه وسلم، كان جواب ذلك أن يقال: « بدأ بالإيمان بالله لأنه قد يحصل بدليل العقل، والعقل سابق في الوجود على الشرع. ثم قال (وملائكته) مراعاةً لإيمان الرسول فإنه يتعلق بالملك الذي هو جبريل أولاً، ثم بالكتاب الذي نزل به جبريل، ثم بمعرفة نفسه أنه رسول. وإنما عرف نبوة نفسه بعد معرفته بجبريل عليه السلام وإيمانه، فترتب الذكر المنزل عليه بحسب ذلك فظهرت الحكمة والإعجاز... لأن الملك هو النازل بالكتاب، وإن كان الكتاب أقدم من الملك، ولكن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك كانت قبل سماعه الكتاب»^(٢). والحق أن إيماننا لا يرتقي في رتبة الكمال إلى إيمان النبي صلى الله عليه وسلم، ولو كان ذلك كذلك لاختلف ترتيبها: « فإيماننا جاء بطريق العقل، آمناً بالله أي بوجوده... ثم آمناً بالرسول، ثم بالكتاب المنزل عليه، وبالملك النازل به. فلو ترتب

(١) - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ج ٢، ص ٦٥.

(٢) - البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٤٥-٢٤٦.

اللفظ على حسب إيماننا لبدأ بالرَّسول قبل الكتاب، ولكنَّ إِنَّمَا تَرْتَبُ على حسب إيمان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو إمام المؤمنين^(١)، فَلَمَّا كَانَ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقْدَمًا على المؤمنين في رتبة الإيمان، جاء ترتيب الجملة متناسقا مع إيمانه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولو قلنا بأن ترتيب الجملة جاء بحسب الوقائع لكان توجيه ذلك أن يقال: « في هذا الترتيب سرٌّ لطيف وذلك لأنَّ النور والكمال والرحمة والخير كله مضاف إلى الله تعالى والوسائط في ذلك الملائكة. والمقابل لتلك الرحمة هم الأنبياء والرَّسل، فلا بدَّ أولاً من أصلٍ، وثانياً من وسائط، وثالثاً من حصول تلك الرحمة، ورابعاً من وصولها إلى المقابل لها. والأصل المقتضي للخيرات والرحمة هو الله، ومن أعظم رحمةٍ رَحِمَ بِهَا عباده إنزال كتبه إليهم، والموصل لها هم الملائكة، والمقابل لها المنزلة عليهم هم الأنبياء، فجاء الترتيب على ذلك بحسب الوقائع»^(٢).

ولو دقت النظر مرة بعد أخرى لتأكد عندك أن كلا الأمرين جائز في الآية الكريمة، والقرآن حمال أوجه ولا مانع من ذلك، خصوصاً أن هذا التنوع في المعاني يضيف على كتاب الله نوعاً من الإعجاز.

وإنك لتجد في الآية الكريمة نوعاً آخر من الإعجاز، ذلك ما نلمسه من تنوع القراءات القرآنية، فقولته تعالى (وَكُتِبَهِ) جاء بصيغة الجمع، وجاء في قراءة أخرى بصيغة الأفراد (وكتابه)^(٣). فإن قلت: ما وجه الإعجاز الذي أضافته القراءة القرآنية؟ قلت: إن في إفراد كلمة (وكتابه) شمولاً نابعا من اسم الجنس، وهذا ما نقله الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: « وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ ذلك (وكتابه)

(١) - المرجع السابق ج ٣، ص ٢٤٦، بتصريف يسير.

(٢) - البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٣) - النشر في القراءات العشر، ابن الجزري شمس الدين محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣ هـ)، تحقيق علي الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، بدون ط اوت، ج ٢، ص ٢٣٧.

ويقول: الكتاب أكثر من الكتب»^(١). ولا يظن ظان أن هناك تعارضا بين القراءتين، لأن قوله تعالى (وكتابه) بالإفراد زاد عن صيغة الجمع بالشمول والعموم وهذا مستفاد من كونه اسم جنس، وليس في هذه الزيادة تعارض وإنما هو من تمام المعنى، وهذا باب من أبواب الإعجاز القرآني. فاختلاف القراءات القرآنية تمام بيان وزيادة معني، وهو من باب اختلاف التنوع لا التضاد.

ثالثا: قوله تعالى: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾

تثبت الجملة القرآنية الكريمة حقيقة مطلقة لا تقبل النقض، وهي أصل الرسالات السماوية ومنبعها، وما يبني على ذلك من وجوب الإيمان بأصلها لأنه واحد، ذلك ما نجده في قوله تعالى ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾.

ولو جئنا إلى أقوال الأئمة في تفسيرهم لدلالة قوله تعالى (لَا تُفَرِّقُ) لوجدناها تؤصل ما حكيتها آنفاً. يقول ابن عطية: «ومعنى هذه الآية أن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض»^(٢). ويقول العز بن عبد السلام: «(لَا تُفَرِّقُ) لا تؤمن ببعض ونكفر ببعض»^(٣). ويقول البيضاوي: «المراد نفي الفرق بالتصديق والتكذيب»^(٤).

أما عن أقوالهم في الكشف عن دلالة قوله تعالى (بَيْنَ أَحَدٍ) فنجد من ذلك ما قاله

-
- (١) - تفسير الطبري، مرجع سابق، ج ٦، ص ١٢٥
(٢) - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ج ١، ص ٣٩٢.
(٣) - تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ج ١، ص ٢٥٠.
(٤) - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦٦.

الالوسي: أي « نؤمن بهم جميعاً ونصدق بصحة رسالة كل واحد منهم »^(١)، ومن ذلك أيضاً ما قاله محمد عبده: « وفي هذا مزية للمؤمنين من هذه الأمة على غيرهم من أهل الكتاب الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، كأنهم لم يعقلوا معنى الرسالة في نفسها، إذ لو عقلوها لما فرقوا بين من أوتوها»^(٢).

ويرى الباحث أن في الآية الكريمة التفاتاً من الإخبار إلى الخطاب، وهو ما جعله ابن عاشور محتملاً في الجملة القرآنية^(٣). فقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين بقوله (كل آمن) ثم نقل لنا قول المؤمنين (لا نفرق بين أحد من رسله) وفي هذا الالتفات تنبيه إلى عظم المسؤولية الملقاة على عاتق المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم، فهم ورثة الرسالة المحمدية، وهم مؤمنون ضمناً بأصول الرسالات السماوية السابقة، لا يكفرون برسالة موسى ولا برسالة عيسى عليهما السلام، شعارهم في ذلك أنهم يؤمنون بأصول الرسالتين وغيرهما من الرسالات السابقة، وقد عرفنا مطلع الآية الكريمة بشيء من هذه الأصول وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وتتجلى روعة الإعجاز القرآني بلفظ (أحد) الذي جاء بصيغة التنكير والتنوين في سياق النفي دالاً على العموم، مؤذناً بوحدة أصل الرسالات السماوية السابقة غير المحرفة مع رسالة الإسلام الخاتم فهي جميعاً من الله تعالى. وعلى هذا لا يجوز لأتباع الرسالة المحمدية إنكار رسالة موسى وعيسى وغيرهما عليهم صلوات الله جميعاً. وعلى هذا فمن أنكر أيّاً من رسل الله كفر بالكل، يشهد لهذا قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۗ ﴾^(٤) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا

(١) - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مرجع سابق، ج ٢، ص ٦٦
(٢) - تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المنار، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧ هـ، ص ١٤٤، ج ٣.
(٣) - للاستزادة ارجع إلى تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد أو التحرير والتنوير، ابن عاشور محمد الطاهر التونسي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ هـ، ج ٣، ص ١٣٣.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿ (النساء: ١٥٠ - ١٥١). بل إن آية أخرى جاءت تصرح بأسماء الرسل عليهم السلام وتقرّر وحدة أصل رسالاتهم، ذلك قوله سبحانه ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُّسْلِمُونَ ﴿ (آل عمران: ٨٤) ، ثم أتم قراءة الآية بعدها يتبين لك جليا أن مقتضى الإيمان بأصول الرسالات السماوية، هو مقتضى دين الإسلام الذي جاء خاتما ومتمما وناسخا لبعض ما جاء في تلك الرسالات من شرائع وأحكام، يقول تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ (آل عمران: ٨٥).

كما تشهد نون الجمع المقترنة بقوله (نُفَرِّقُ) بأن قلوب المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم تجتمع على عدم التفريق بين الرسل، فكلهم على قلب رجل واحد في هذه المسألة. وفي كل هذا إعجاز تأثيري عجيب، فهو من جهة يوحد قلوب المؤمنين ويجعلها على قلب واحد، ومن جهة أخرى يؤلف بين المسلمين وغيرهم، إذ يقرر إيمان أتباع محمد صلى الله عليه وسلم بأصول الرسالات السماوية وبرسل الله وأنبيائه عليهم صلوات الله وسلامه، ولا يخفى ما للمودة والتألف من أثر في الدعوة إلى الحق.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿

أمعن النظر في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿ تتبدى أمام ناظرينا عجائب النظم البديع، وصنعة النسق الفريد. حيث قدم الوسيلة على المطلب، وأخر المسألة عنهما. فقال سبحانه (سَمِعْنَا) وهي الوسيلة، وثنى بعدها بالمطلب فقال (وَأَطَعْنَا)، وختم آخرها بالمسألة بعد تحقق المطلب فقال (غُفْرَانَكَ). يقول البروسوي: «وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران؛ لما ان تقديم الوسيلة على المستؤل أدعى الى الإجابة والقبول». (١)

(١) - روح البيان في تفسير القرآن، البروسوي إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ٤٤٧.

أضف إلى براعة الترتيب براعة الاختيار ، ففي حين جاءت الوسيلة والمطلب بصيغة الفعل الماضي، جاءت المسألة بصيغة المصدر، وفي هذا سرّ عجيب ، وهو : أن دلالة المضي أفادت تحقق وقوع السمع والطاعة، بينما أفادت المصدرية طلب المسألة دون تقييدها في زمن محدد، كأنهم يقولون : ربنا حققنا السمع والطاعة فاغفر لنا ما كان وما هو كائن وما سيكون .

المطلب الثاني : لطائف المعاني ووجوه الإعجاز المستفادة من خاتمة العقد في سورة البقرة

قال ربنا سبحانه في خاتمة العقد الفريد لسورة البقرة الشريفة ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾
(البقرة: ٢٨٦)

والناظر في الآية الكريمة لا يجد بدأً من أن يسلم الله الرحمن الرحيم بكل ما فيه، لما يجد في فكره ووجدانه وعقله من المعاني الثرة التي لا تقف عند مراعاة أحوال الخلق، وإنما تضمّ إلى ذلك الكشف عن مكنونات النفس الإنسانية وخبايها وما جبلت عليه في أصلها.

أولاً: قوله تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

وأول ما تطلع به الآية الكريمة علينا ذلك الالتفات البديع، الذي فيه من معاني التمتن ما لا يخفى على أولي الألباب. « فالعدول عن الخطاب إلى الغيبة بذكر الاسم الأعظم من

باب التملق بأن له من صفات العظمة ما يقتضي العفو عن ضعفهم»^(١)

وقوله تعالى (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) يظهر أن النفس - أي نفس - لا تطيق تكليفها ما لا تستطيع، وأنها تميل إلى ما في طاقتها ومقدورها. وقد امتن ربنا سبحانه على خلقه في هذه الجملة القرآنية بمنّة عظيمة، هي أسّ التشريع وجوهره وحقيقته. وهي: أن تكاليف الله للنفس إنما قدّرت بالطاقة والوسع ولو كان فيها مشقة فهي زائلة، فالله « لا يكلف أحداً إلا ما اتسعت له قدرته وإمكاناته دونما تضيق أو تعنيت»^(٢) وهي وإن كانت في بعضها مشقة إلا أنها لا تستنفذ طاقة النفس، ولا تأتي على آخرها، وإنما « تكون في طوق العبد ودون مدى الطاقة والمجهود» عل حدّ قول الزمخشري^(٣). وبهذا تتضح لنا حقيقة جوهرية هي من أجلّ حقائق الإعجاز التشريعي في شريعتنا الغراء، وهي أن الأحكام الربانية إنما هي في مقدور الطاقة والوسع للمكلف وهذا يسري في جميعها، ولا يكون في بعضها دون الآخر.

ويستفاد من هذا الوجه من وجوه الإعجاز وجه آخر يتصل به اتصالاً مباشراً، ذلك الوجه الأخلاقي للتشريعات الربانية التي بيّنت أن الله سبحانه راعى أحوال النفس ولم يرهقها ويشرع لها ما يؤدي بها إلى الهلاك أو العنت، وفي ذلك رسالة من الله إلى هذه الأنفس، بأن تجمع في فهمها لهذه التكاليف بين نظرتين: الأولى: فهم طبيعة التكاليف وإنها قائمة على التيسير وما كان في مقدور الخلق، والثانية: إدراك الطبيعة الأخلاقية للتكاليف، وأنها قامت على الرحمة بالأنفس، فلا تُكَلِّف نفس إلا ما كان معلوماً أنها قادرة عليه ابتداءً.

(١) - نظم الدرر، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٧٦.

(٢) - أحكام القرآن، الكيا الهراسي علي بن محمد بن علي أبو الحسن الطبري (المتوفى: ٥٠٤هـ)، تحقيق موسى علي وعزة عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ، ج ١، ص ٢٧٢.

(٣) - انظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ، ج ١، ص ٣٣٢.

ثانياً: قوله تعالى: (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

ولما تمنن الله سبحانه على خلقه بما كان منه من يسر في التكليف، أعقب ذلك بتذكيرهم بما لهم من الجزاء، وفي التقديم : تخصيص لهم بالتبعية أو قل : إقرار لمبدأ فردية التبعية، والمقرر أن « اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعي إلى تحصيله، واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته »^(١).

ثم تقدم ما تحبه النفس على ما تكرهه، فقدم (لَهَا) على قوله (وَعَلَيْهَا)، وقرن اللام بالخير وعلى بالشر؛ « لأن الخير مما يفرح به ويسر، فأضيف إلى ملكه، بينما جاء في الشرّ بـ(على) من حيث هي أوزار وأثقال قد علتته وصار تحتها يحملها »^(٢). كما يظهر أن تقديم اللام الدالة على الخير هو تعبير وكشف عن طبيعة النفس المسلمة التي ترى كل ما يصيبها إنما هو خير، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ٥١) فالتعبير بقوله : (لَنَا) دلالة واضحة على طبيعة النفس المؤمنة بقضاء الله المسلمة له سبحانه. أضف إلى ما سبق أن في تقديم (لها) « ترغيب للنفس في المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الإخلال بها »^(٣). وهذا من أهم دروس الدعوة إلى سبيل الله سبحانه وفق منهج يجذب ولا يطرد.

ولاقتران الجزاء بقوله (مَا) تعظيم للمسؤولية؛ لما في (مَا) من العموم المشعر بحماسة النفس عن كل ما صدر منها، وهو ما أكده ربنا سبحانه في مواطن أخرى في كتابه العظيم كما في قوله: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴿ (الزلزلة: ٧ - ٨)

(١) - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى

العمادي (المتوفى: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١، ص ٢٧٦.

(٢) - البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى ٧٤٥هـ)، تحقيق صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ج ٢، ص ٧٦٢.

(٣) - إرشاد العقل السليم أو تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٦.

وفي تقديم الكسب على الاكتساب من وجوه الإعجاز وقيمه ما يكشف عن طبيعة النفس وأصلها الذي جبلت عليه، ويتضح ذلك من مقالات الأئمة في التفريق بين التصريفيين. قال ابن عطية: «والذي يظهر لي أن الحسنات هي ما يكسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله. والسيئات تكتسب ببناء المبالغة؛ إذ كاسبها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى، ويتخطاه إليها»^(١).

وهذا يوقفنا على حقيقة أصل النفس وما جبلت عليه يوم خلقت، فهي نفس تميل إلى الخير بطبيعتها وتحبه بفطرتها، لأنها تحب أن تكسب ما لا يحتاج إلى تكلف وجهد، وما لا يكون فيه سوء عاقبة، ولا تميل إلى اكتساب ما فيه تكلف وسوء عاقبة. قال البيضاوي: «وتخصيص الكسب بالخير والاكتساب بالشر لأن الاكتساب فيه احتمال، والشر تشتهي النفس وتنجذب إليه فكانت أجد في تحصيله وأعمل بخلاف الخير»^(٢). أضف إلى ذلك أن اللفظ القرآني جاء بالفعل المجرد عن المبالغة؛ ليبين أن العبد يجازى على الخير بأدنى الكسب، كما قال الحرالي^(٣).

وأخلص إلى أن «إضافة الاكتساب إلى الشر لبيان أن النفس مجبولة على فعل الخير، وأنها تفعل الشر بالتكلف والتأسي، إذ الميل إلى الخير مما أودع في طبع الإنسان، ولا يحتاج إلى مشقة في فعله، بل يجد لذة في عمله، كما يشعر بالميل إلى عبادة الله؛ لأن شكر المنعم مغروس في طبعه»^(٤).

ثالثاً: قوله تعالى: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)

ولما كانت نفوس الخلق ميالة إلى الشهوات تعمد إلى اكتسابها ولو كلفها ذلك جهداً وسوء عاقبة، ولما بشرهم بذلك (يقصد إحسانه سبحانه إلى الأنفس بمجرد الكسب

(١) - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٣.

(٢) - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦٦.

(٣) - انظر نظم الدرر، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٧٧.

(٤) - تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١ هـ)، مطبعة مصطفى البابي

الحلي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، ج ٣، ص ٨٥.

الخالى عن الاعتمال) عرفهم مواقع نعمه في دعاء رتبه على الأخر فالأخر على سبيل التعليم؛ إعلماً بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسياناً، ولا بما قارفوه خطأ، ولا حمل عليهم ثقلاً، بل جعل شريعتهم حنيفة سمحة، ولا حملهم فوق طاقتهم، مع أن له جميع ذلك. وأنه عفا عن عقابهم، ثم سترهم فلم يخلهم بذكر سيئاتهم، ثم رحمهم بأن أحلهم محل القرب «(١)، جاء قوله سبحانه (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) من باب التمنن على هذه النفس مرة أخرى؛ فخالقها أعلم بها وبضعفها أمام ما يعرض في طريقها من شهوات أو شبهات قد تصرفها عن الجادة.

فكان تعليم الله سبحانه لهذه النفس بما يحب سبحانه أن يسأل به من الدعاء الجامع الذي تستجلب فيه النفس خير الدنيا والآخرة. وكان أول الدعاء قوله عز وجل (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا). وفي اختيار لفظ الرب ما يعكس من المعاني ما لا يقف عند ذاته العلية سبحانه، بل يتعدى ذلك إلى أثر الاسم على النفس والخلق.

وفي هذا يقول رشيد رضا: «لفظ الرب ليس معناه السيد والمالك فقط، بل فيه معنى التربية والنماء، وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان في نفسه وفي الآفاق منه عز وجل. فليس في الكون متصرف بالإيجاد ولا بالإشقاء والإسعاد سواه». (٢) وهذا يعكس طبيعة التأثير الذي ينبغي ان يكون في النفس من جلالة اسم الرب، فهو من يسعدها وهو من يشقيها وهو من يتصرف في أمرها، ولما كان ذلك ما يكون منها إلا أن تعلن تمام الاستسلام والخضوع له سبحانه.

فإذا أدركت النفس طبيعتها وصلتها بخالقها، ومن ثم أدركت وظيفتها ودورها فأذعنت لله بالخضوع وسلّمت له بكل ما فيها، تراها تتوجه إليه بالمسألة إن هي نسيت أو أخطأت. نسيت من النسيان أو الترك وهو الأرجح (٣) إذ النسيان مما هو مرفوع عن

(١) - نظم الدرر، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٧٨.

(٢) - تفسير القرآن الحكيم أو تفسير المنار، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٣.

(٣) - وهو ما رجحه الطبري في جامع البيان، انظر ج ٦، ص ١٣٢.

النفس ولا تؤاخذ عليه، إلا إذا كان مما تغافل العبد عن أسباب الأمر فوقع في نسيانه .

وما أبهى (إن) في هذا السياق القرآني الفريد. فالمقرر عند أهل البلاغة أن «الأصل في إن ألا يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه .^(١) والمعنى أن (إن) الصغيرة بجرمها العظيمة بمحتواها، تحمل فيما تحمل من المعاني معنىً تربوياً عظيماً. وكأنها تشير إلى النفس المؤمنة المستسلمة لأمر ربها، وتقول لها: إن الأصل والمتوقع من المؤمنين بالله عدم ترك أمر الله أو ارتكاب ما نهى عنه سبحانه، وهو مقتضى الاستسلام والإذعان لأمر الله سبحانه، وأن المخالفة لو وقعت تكون قليلة.

وقد اختلف العلماء في معنى الدعاء بعدم المؤاخذة بالنسيان ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٢). فالنسيان مما عفي عنه ابتداءً من غير مسألةٍ نعمةً من الله ومنهً منه سبحانه .

وأجاب الرازي عن هذا بوجوه عدة علل فيها رجاء المؤمنين ربهم ألا يؤاخذهم على نسيانهم، من أوجهها « كأنه قيل إن الناسي قد لا يكون معذوراً ؛ وذلك ما إذا ترك التحفظ ، وأعرض عن أسباب التذكر ، وإذا كان كذلك صحَّ طلب غفرانه بالدعاء ... أو إذا كان النسيان مما تجوز المؤاخذة به فلا تؤاخذنا به ... أو أن المقصود من الدعاء إظهار التضرع إلى الله تعالى لا طلب الفعل ؛ ولذلك فإن الداعي كثيراً ما يدعو بما يقطع بأن الله تعالى يفعله ، سواء دعا أو لم يدع قال الله تعالى قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ »^(٣)

(١) - الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي الشافعي(٧٣٩هـ)، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، ج ٢، ص ١١٧.

(٢) - أخرجه ابن ماجه في السنن. انظر سنن ابن ماجه، ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون ط او ت، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، حديث رقم ٣٠٤٣.

(٣) - انظر مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، الرازي فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م ، ج ٧، ص ١٢٦ بتصرف.

رابعاً: قوله تعالى: (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا)

ثم قال ربنا في الجملة الدعائية الثانية متمننا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا) والاصر: «العبء الذي يأصر حامله، أي يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله، استعير للتكليف الشاق»^(١). والمعنى أي «لا تشدد علينا في التكليف كما شددت على من قبلنا من اليهود ...

والمؤمنون إنما طلبوا هذا التخفيف لأن التشديد مظنة التقصير، والتقصير موجب للعقوبة، ولا طاقة لهم بعذاب الله تعالى. فلا جرم طلبوا السهولة في التكليف. والقول الثاني لا تحمل علينا عهداً وميثاقاً يشبه ميثاق من قبلنا في الغلظ والشدّة، وهذا القول يرجع إلى الأول والأول أولى»^(٢).

وتثبت الجملة القرآنية تاريخاً مما كانت عليه تشريعات من كانوا قبلنا، ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يؤكد ثقلها عقوبة لهم على تقصيرهم في حق الله سبحانه لولا أن الله تعالى أوحى خبرها إليه. وهو ما يسوق الأمة المسلمة الى «دعاء ينبعث من وراثتها لتراث الرسالة كلها... ومعرفتهم بما كان من سلوك الامم التي جاءت بها الرسالات قبلهم، وما حملهم الله من الأصار والأثقال عقوبة لهم على بعض ما كان منهم»^(٣).

خامساً: قوله تعالى: (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

وتختتم الجمل الدعائية بقوله سبحانه (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ). وقد ذكر المفسرون لها معاني متعددة. منها: ما ذكره الطبري بقوله: «يعني بذلك جل ثناؤه: ربنا لا تكلفنا من الأعمال ما لا نطيق القيام به، لثقل حمله علينا. وكذلك كانت جماعة

(١) - تفسير الكشاف، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٩

(٢) - مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٢٧ بتصرف

(٣) - في ظلال القرآن، مرجع سابق ج ١، ص ٣٤٦

أهل التأويل يتأولونه» (١). وقد خالفه الرزاعي فقال: «إنه تعالى لم يقل: لا تكلفنا ما لا طاقة لنا به، بل قال لا تُحْمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ. والتحميل هو أن يضع عليه ما لا طاقة له بتحملة، فيكون المراد منه العذاب. والمعنى: لا تحملنا عذابك الذي لا نطيق احتماله، فلو حملنا الآية على ذلك لكان قوله: لا تُحْمَلْنَا حَقِيقَةً فِيهِ، ولو حملناه على التكليف كان قوله: لا تُحْمَلْنَا مجازاً فيه، فكان الأول أولى» (٢). والذي يميل إليه الباحث في هذا المقام أن ما لا طاقة لنا به هو العذاب، وليس التكليف؛ لأن الآية الكريمة أكّدت في مطلعها أن الله لا يكلف نفساً إلا ما تطيق، فكان مطلعها تأكيداً على ما ذهب إليه الرزاعي.

ومن بديع النظم في الجمل الدعائية الثلاث: إعادة لفظ (رَبَّنَا) في مطلع كل منها، وذلك من باب «التذكير بعظم المقام في حسن التربية ولطف الإحسان والرافة» (٣). ومن ذلك أيضاً: أنه سبحانه قال في الثانية: (وَلَا تُحْمَلْ عَلَيْنَا إِصْرًا)، وقال في الثالثة: (وَلَا تُحْمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) فجاء فعل الحمل مجرداً في الثانية، مضعفاً في الثالثة. والجواب عن ذلك أن يقال: «إن الشاق يمكن حمله، أما ما لا يكون مقدوراً فلا يمكن حمله. فالحاصل فيما لا يطاق هو التحميل فقط، أما الحمل فغير ممكن، وأما الشاق فالحمل والتحميل يمكنان فيه» (٤). ولما كانت التكاليف ممكنة جاء الفعل مجرداً، ولما كان العذاب غير ممكن تحمله، جاء الفعل مضعفاً؛ زيادة في الرجاء والالتجاء إلى ركن الله سبحانه.

سادساً: قوله تعالى: (وَأَعْفُ عَنَّا وَأَغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا)

وبعد أن اختتمت الجمل الدعائية الثلاث، جاءت خلاصتها وشهدها في جمل دعائية قصيرة مباشرة جامعة، تجتمع في نظمها وحسن ترتيبها سابقاتها من الجمل الثلاث. قال سبحانه (وَأَعْفُ عَنَّا وَأَغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا) والمعنى «(واعف عنا) أي ارفع عنا عقاب

(١) - جامع البيان، مرجع سابق، ج ٦، ص ١٣٨

(٢) - مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٢٨.

(٣) - نظم الدرر، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٧٩.

(٤) - مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٢٩.

الذنوب كلها. (واغفر لنا) أي ولا تذكرها لنا أصلاً. فالأول العفو عن عقاب الجسم، والثاني العفو عن عذاب الروح ... ولما كان قد يلحق من يُعفى عنه ويُغفر له قصور في الرتبة عن منال الحظّ من الرحمة، ألحق تعالى المعفوَّ عنه المغفورَ له بالمرحوم ابتداءً بقوله: (وارحمنا) أي حتى يستوي المذنب التائب والذي لم يذنب قط في منال الرحمة «^(١) وهو من تمام النعمة والمنّة الإلهية الرحيمة، التي لا تقف عند الصفح والمحو، وإنما تزيد على ذلك رفعةً في الدرجة والرتبة، وهي من الرحمة الخاصة التي يدخرها الله سبحانه لمن صلح من عباده.

فإن قلت: ما سرّ تقديم العفو والمغفرة على الرحمة؟ أجابك أبو السعود بقوله: « وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة، لما أن التخليّة سابقة على التحلية»^(٢). فلا بدّ من تحلية النفس من آثار الذنوب التي هي العقاب أو الملامة أو الإبعاد، ثم تأتي التحلية بحلّة الرحمة والرضوان ورفعة الدرجات والرتب.

ولما كانت هذه الجمل الدعائية القصيرة نتائج وخلاصات لما تقدّمها من الجمل الدعائية الثلاث، خلت من قول (ربّنا)، وافتتحت بالطلب المباشر من ذي الجلال سبحانه، وجاءت الجمل على أحسن نسق وترتيب. « فجاء قوله تعالى: (فاعف عنا) مقابلاً لقوله: (لا تؤاخذنا). وجاء قوله: (واغفر لنا) مقابلاً لقوله سبحانه: (ولا تحمل علينا إصراً). وجاء قوله: (وارحمنا) مقابلاً لقوله عزّ شأنه: (ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به)^(٣). ولا تخفى روعة الترتيب على ذي لب وبصيرة ملهمة.

وأنعم النظر في الجمل الدعائية جميعها، تجدها تتفق على صيغة الجمع، وكأنّها تنطق بلسان الأمة جمعاء؛ وذلك بيان من الله عزّ شأنه « أن قبول الدعاء عند الاجتماع أكمل؛ لأنّ للهمم تأثيرات، فإذا اجتمعت الأرواح والدواعي على شيء واحد كان

(١) - نظم الدرر، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) - ارشاد العقل السليم أو تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٧.

(٣) - البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٦٣.

حصوله أكمل».^(١) وهي وصية الله سبحانه للأمة بالاجتماع وعدم التفرق، وهو عود على بدء، فقد أكدت الآية السابقة أن روح الجماعة هي الرباط الوثيق الذي يعضد الأمة، ويحفظ عليها عزّها وخيريتها.

سابعاً: قوله تعالى: (أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

ولما كانت الأمة حاملة لرسالة الله تعالى، مبلّغة عنه، ذكّرها سبحانه بما ينبغي أن يكون في بالها - أفراداً وجماعات - في كل وقت وحين، ذلكم هو طلب نصره الله وعونه على كل من كفر بالله سبحانه وصدّ عن سبيله. فقال سبحانه (أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).

وفي مجيء (أَنْتَ) ما يعزّز المهابة، ويوثق الطمأنينة في نفوس الأمة، بأن لها ربّاً عظيماً لا ينازعه أحد. هو من ينصر الأمة « في محاربتها لأهل الكفر وفي مناظرتهم بالحجة، وفي إعلاء دولة الإسلام على دولتهم». ^(٢) وفيها كذلك: توعية للأمة بوظيفتها التي انبعثت منها خيريتها، وفيها أيضاً: بيان للهدف الأسمى الذي ينبغي أن لا يعلو عليه هدف ولا تسبقه غاية. إنه الهدف الذي لأجله خلقنا، إنه إقامة التوحيد على وجه هذا الأرض.

(١) - مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج٧، ص ١٣٠

(٢) - مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج٧، ص ١٣١.

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على مشعل الهداية وحامل لواء الرسالة الخاتمة، وبعد:

فقد منّ الله سبحانه عليّ بأن أعانني على تفسير خواتيم سورة البقرة الشريفة والوقوف على جواهر معانيها وقيم الإعجاز المستفادة منها، وما ينبعث منها من معان إيمانية وتشريعية وأخلاقية عظيمة.

وإن كان طابع التفسير التحليلي غالباً على البحث، إلا أنني أردت من خلاله أن أخرج عن النمط التقليدي للتفسير التحليلي، فلم أقف عند القواعد النحوية إلا عند الحاجة إليها، ولم أطل في تفصيل المعاني اللغوية إلا بما يخدم المعنى المراد من الآية الكريمة، وكان همّي منصباً على بيان سموّ المعاني القرآنية البديعة من خلال النظر في جمال النظم القرآني، وما رافقه من براعة الأسلوب، والوصول إلى شغاف القلوب بأسلوب تأثيري فريد.

وقد لخصت الآيتان الكريمتان أسس الإيمان، وآثاره، وطبيعة الروابط التي تربط الأمة بعضها ببعض. كما أنها أكدت طبيعة التيسير في التكليف، والقاعدة الأخلاقية التي لا تحيد تكاليف الله سبحانه للبشر عنها. واختتمت بتعليم الله سبحانه لهذه الأمة آداب الالتجاء إليه وطلب المعونة والنصرة منه سبحانه.

المصادر والمراجع

- ١- أحكام القرآن، الكيا الهراسي علي بن محمد بن علي أبو الحسن الطبري، تحقيق موسى علي وعزة عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥ هـ.
- ٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار إحياء التراث، بيروت.
- ٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق محمد المرعشلي، دار إحياء التراث، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.
- ٤- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي الشافعي، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط ٣.
- ٥- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠ هـ.
- ٦- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
- ٧- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد أو التحرير والتنوير، ابن عاشور محمد الطاهر التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤ م.
- ٨- تفسير الراغب الأصفهاني المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد، تحقيق محمد بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ٩- تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسطان العلماء، تحقيق الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

١٠- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المنار، مصر، ط٣، ١٣٦٧هـ.

١١- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

١٢- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٣- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه أو صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٤- جمال القراء وكمال الإقراء، أبو الحسن السخاوي علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، علم الدين السخاوي، تحقيق مروان العطية ومحسن خراية، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٥- روح البيان في تفسير القرآن، البروسوي إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء، دار الفكر، بيروت.

١٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١٧- سنن ابن ماجه، ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون ط اوت.

١٨- السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني، تحقيق حسن شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

- ٢٠- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ٣٢، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ٢١- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧ هـ.
- ٢٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ.
- ٢٣- مسند الإمام أحمد. احمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- ٢٤- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
- ٢٥- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، الرازي فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٢٦- الموافقات، الشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق مشهور آل سلمان، دار ابن عفان، ط ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٢٧- الناسخ والمنسوخ، أبو القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي، تحقيق زهير الشاويش ومحمد كنعان، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ.
- ٢٨- الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تحقيق محمد عبد السلام، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١، ١٤٠٨ هـ.
- ٢٩- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري شمس الدين محمد بن محمد بن يوسف، تحقيق علي الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، بدون ط اوت.
- ٣٠- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.